ابن باديس وترسيخ الهوية الجزائرية؛ الفكر الوطني وهدم الخطاب الكولونيالي

Ibn Badis and the Consolidation of Algerian Identity, National Thought, and the Destruction of Colonial Discourse

ط.د/ إبراهيم لخذاري
brahimlakhdari81@gmail.com

د/ سماح بن خروف
Samsouma.abla@gmail.com

جامعة محمد البشير الإبراهيمي – برج بوعريريج (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2022/09/17 **تاريخ القبول:** 2022/09/24

ملخص:

منذ أن وطأت فرنسا الاستعمارية أرض الجزائر وهي تهدف إلى محو عروبة الجزائر وإسلامها، حيث شنت حربا لا هوادة فيها على الثقافة العربية الإسلامية في طول البلاد وعرضها، حيث بدأت بتهديم صروح الثقافة المزدهرة في الجزائر، وأغلقت أبواب حوالي ألف مابين مدرسة ابتدائية وثانوية، وهدفها من كل هذا محو الهوية الجزائرية العربية المسلمة، وفي هذه الأجواء الصعبة ظهر ابن باديس بنهضته الإصلاحية النهضوية التي هدف من خلالها إصلاح ما أفسده المستدمر الفرنسي، وإحباط المخططات الفرنسية الاستعمارية التي تحاول الانتقاص من الشخصية الجزائرية، بإقناعه بأنه لا محالة صائر جزءا من الأمة الفرنسية.

فماهو دور ابن باديس في مجابهة ما تخطط له فرنسا؟

وهل استطاع ابن باديس إنقاذ الهوية الوطنية العربية الجزائرية؟

وكيف كانت خططه في إصلاح ما أفسده المستدمر الفرنسي؟

الكلمات المفتاحية: إسلام، عروبة، الثقافة، الهوية، الإصلاح.

Abstract:

Since colonial France set foot on the land of Algeria, it aimed to erase Algeria's Arabism and Islam, as it waged a relentless war against the Arab-Islamic culture throughout the country and began to destroy the edifices of the flourishing culture in Algeria.

Thousands of primary and secondary schools were shut down with the ultimate goal of erasing the Algerian Arab and Muslim identity. In this difficult time Ibn Badis appeared with his reformist renaissance, through which he aimed to restore what had been corrupted by the French oppressor and to counter the French colonial schemes that were trying to belittle the Algerian character,while being aware that he inevitably became part of the French nation.

What was Ibn Badis's role in confronting what France was planning? Was Ibn Badis able to save the Algerian Arab national identity? And what were his plans to restore what had been spoiled by the French invader?

Keywords: Islam, Arabism, culture, identity, reformation

مقدمة:

يعتبر عبد الحميد ابن باديس صاحب بركة وفضل على الأمة الجزائرية كمجتمع وعلى الجزائر كوطن، بما قدمه من تضحيات في سبيل الوطن، كما أن له مجهودات جبارة منها: بناء الفكر التحرري، ومقاومة الاحتلال بشتى الأساليب، والحفاظ على الهوية الوطنية وصناعة الوعي بشتى أنواعه، الوعي الديني، والوعي السياسي، والوعي الاجتماعي، والوعي الوطني والتاريخي والوعي الجغرافي، والوعي التربوي، كل هذه الموضوعات تبقى بصمة راسخة، ساهمت بشكل كبير في توعية الشعب الجزائري، وفي صد الاستدمار الفرنسي الذي عاث فسادا في البلاد وظلما في العباد.

فماهو دور ابن باديس في إصلاح ما أفسدته فرنسا؟

وهل استطاع إنقاذ الهوية الوطنية العربية الجزائرية؟

1. دور ابن باديس في ترسيخ الهوية الجزائرية والفكر الوطني:

يقول الشيخ البشير الإبراهيمي عن الشيخ ابن باديس وهو أقرب الناس إليه وأعرفهم به: "باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها المغيرة على الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشئ مجلة "الشهاب" مرآة الإصلاح وسيف المصلحين، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية، والهدي المحمدي

وعلى التفكير الصحيح ومحي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، غارس بذور الوطنية الصحيحة وملقن مبادئها على البيان، وفارس المنابر الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب، وجمعيات التربية والتعليم"[1]. إن الكتابة عن الشيخ ابن باديس وإن كثرت في وصفه فلن تفيه حقه فهو إنسان عظيم عظمة نهضته الإصلاحية وفكره التربوي والسياسي والفلسفي، وهو شخصية فذة عبقرية.

تتجسد جهود ابن باديس في ترسيخ الهوية الجزائرية والفكر الوطني من خلال عمله على تعميق الانتماء الوطني فكيف كان ذلك؟

- **تعميق الانتماء الوطني**: يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس في مقال له عن الوطن والوطنية: "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء بهاتين الجملتين منذ نيف وعشر سنين توجنا جريدة (المنتقد) الشهيدة، وجعلناهما شعارا لها تحمله في رأس كل عدد منها. هذا أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة إجرامية لا يستطيع أحد أن ينطق بها، وقليل جدا من يشعر بمعناها. وإن كان ذلك المعنى دفينا في كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها، لا سيما في أمة تنسب إلى العروبة وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية ذات التاريخ المجيد. أما اليوم وقد صارت كلمة الوطن والوطنية سهلة على كل لسان، وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها، وقد يقولها آخرون بألسنتهم، ولا يستطيعون أن ينتسبوا لها في المكتوب من رسمياتهم، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون في وطنياتهم، وينكرها آخرون زعما منهم أنها ضد إنسانيتهم وعمومياتهم فالإنسان من طفولته يحب بيته وأهل بيته لما يرى من حاجته إليهم واستمداد بقائه منهم وما البيت إلا الوطن الصغير؛ فإذا تقدم شيئا في سنه اتسع أفق حبه وأخذت تتسع بقدر ذلك دائرة وطنه، فإذا دخل ميدان الحياة وعرف الذين يماثلونه في ماضيه وحاضره وما ينظر إليه من مستقبله، ووجد فيهم صورته بلسانه ووجدانه وأخلاقه ونوازعه ومنازعه – شعر نحوهم من الحب بمثل ما كان يشعر به لأهل بيته في طفولته ولما فيه كما تقدم من غريزة حب الذات وطلب البقاء، وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير، ومحبته لهم في العرف العام هي الوطنية. وهذه هي وطنيتنا

معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنيته، وقد أعلناها يوم قلنا على رأس جريدة (المنتقد): (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء) وسرنا على مقتضاها إلى اليوم في كل ما قلنا وكتبنا وسنبقى عليها كل مسلم جزائري"[2].

يدعو الشيخ عبد الحميد ابن باديس من خلال ما سبق ذكره إلى أن كلمة الوطن والمواطنة كانت جريمة، إلا أنّ نشر الوعي جعل الشعب الجزائري يعتز بوطنه ولم يتأت له ذلك إلا من خلال التضحيات التي ضحى من أجلها الشعب الجزائري لترسيخ المواطنة في سلوكه؛ ويعتبر الوعي بالمواطنة إرهاصات قوية ستنذر بثورة عارمة بعد مدة، فوجب على من ينتسب إلى الجزائر أن يفتخر بها وطنا، وبالعربية لغة، وبالإسلام دينا؛ وهو الشعار الذي دأبت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ترسيخه في ندواتها التربوية، ومنابرها المسجدية وخطاباتها الوطنية، ومناشيرها التوعوية، ولكن الوطنية إيمان بحقيقة الجزائر في تاريخها العريق وحضارها العميقة، وليست كلمة تلوكها الألسنة وترددها الأفواه.

لقد حاولت فرنسا الاستعمارية أن تزرع بذور الخلاف بين العناصر المختلفة من الشعب الجزائري بين عرب وبربر، ورأت أنّ التماسك والوحدة والإسلام سيفشل خططها الاستعمارية، ولكن ابن باديس كان لها بالمرصاد من خلال شعاره الوطني الفعال في بعث اليقظة والوعي الوطنية والمتمثل في "الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا".

استطاع ابن باديس أن ينشر الوعي في صفوف الجزائريين وأن يحسسهم بوجود وطن لهم له حدوده وتاريخه وثقافته ووجوده الحضاري المتميز عن فرنسا، وكيفية المحافظة عليه انطلاقا من تجسيد ذلك في مجال التربية حيث: "أفردت مناهج التعليم العربي الحر مكانة خاصة لتعليم جغرافية الجزائر ... وقد كانت بعض كتب الجغرافيا المقررة على تلامذة التعليم العربي الحر مكتوبا على غلافها الخارجي الشعار التالي الذي يلخص مقومات الشخصية الجزائرية وهو: الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا؛ وهذا الشعار رفعته الحركة الوطنية ضد سياسة الاحتلال التي تقوم على أساس الفرنسية والتنصير والإدماج"[3].

نجح المستعمر الفرنسي إلى حد بعيد في تشويش أفكار الجزائريين حول مفهوم الوطن لأنّ السلطات الفرنسية: "تمكنت بعد قضائها على الثورات المسلحة بالبطش والتنكيل أن

تدخل في روع الجزائريين أن الأمة الجزائرية إنما وجدت بفضل فرنسا التي جلبت للجزائر الحضارة والثقافة والوعي السياسي واستطاعت أن تفرض كذلك بالوعي والقوة والإكراه أفكارها الاستعمارية التي تعتبر الجزائر أرضا فرنسية"[4] وقد آمن بعض الجزائريين بما تدعيه فرنسا، والمصيبة أن هناك جماعة من المثقفين الذين تشبعوا بالثقافة الفرنسية وبثت فيهم سمومها حتى تبنوا مبدأ الاندماج التام في فرنسا، وقد وصف ابن باديس هذه النخبة وهذا الواقع المرير قائلا: "لقد كان هذا العبد يشاهد قبل عقد من السنين هذا القطر قريبا من الفناء ليس له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون عنه، ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم مستمر ويا ليته كان في حالة هناء، وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم، وقد ينكرونها"[5] هذا ما دفع بابن باديس لرسم خطوط عريضة لمحاربة هذه النخبة التي تعد إحدى ثمرات السياسة الاستعمارية المرة التي كانت تهدف إلى الإدماج.

وقد نجح ابن باديس في تحقيق هدفه، وبلوغ غايته المنشودة إلى حد بعيد، وبذلك يكون قد وجه ضربة قوية لمشروع الإدماج الذي كانت تراهن عليه السياسة الاستعمارية وتعده خطوة مهمة نحو احتواء الجزائر نهائيا. ولعل ما يؤكد هذه الفكرة تلك التقارير السرية التي كانت تعدها المخابرات الفرنسية المكلفة بمتابعة نشاط الجمعية ومراقبة رجالها والتي أكدت أن: "شعب مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية والإسلام الذي يمارسونه هو مدرسة حقيقية للوطنية"[6].

حري بنا أن نشير إلى أهمية الأفكار التي يطرحها الشيخ ابن باديس في حلقات التفسير والوعظ والإرشاد ومحاضراته وكتاباته، سواء بقسنطينة أو بالجزائر العاصمة أو خارجها بالأرياف، انصبت هذه الأفكار على المحافظة على الهوية الوطنية الجزائرية العربية المسلمة.

يرى ابن باديس أن متابعة الغرب واتباعهم في كل شيء ضياع للشخصية وللهوية الجزائرية العربية المسلمة وللحفاظ عليها كان يعتمد شعارا ويؤكده:

شعب الجزائر مـــسلم *** وإلى العروبة ينتســـــب
من قال حاد عن أصله *** أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجـــــا له *** رام المحال من الطـــلب
يانشُء أنت رجـــاؤنا *** وبك الصبـاح قد اقترب
خُذ للحياة سـلاحـها *** وخذ الخطوب ولا تهـب
واقلع جـذور الخائنين *** فإن منهم كل العـــطب

كما يمكننا أن نعتبر هذا الشعار كمعلم للهوية الجزائرية، وقد دأب ابن باديس على ترسيخها من خلال اهتمامه بمجموعة من العناصر الأساسية المكونة لهذا الشعار والمتمثلة في: الدين، الوطن، اللغة، قيم المجتمع.

أ.الدين: إن ابن باديس يحب الدين الإسلامي بلا بدع ولا خرافات ولا طرق ولا مشايخ يسمسرون ويتاجرون بالدين، وقد حمل عليهم حملة شعواء نظرا لخطورتهم على الأمة الجزائرية حيث كانوا يخضعونها للاستعمار بطرقيتهم وبدعهم وضلالاتهم، وقد رد عليهم ردا علميا مفحما في مطلع افتتاحية جريدة السنة مبينا الفرق بين الصوفية السنية والصوفية البدعية.

ب.الوطن: كانت فكرة القومية والوطنية واضحة المعالم في الفكر والخطاب الباديسي، بيّنة المعالم والقسمات، وهذا ما دعا إليه ابن باديس من خلال منهاجه في التعليم وحاول ترسيخه في نفوس الجزائريين.

ت. اللغة: وقف ابن باديس حياته كلها في خدمة العربية ودينها في الجزائر، ووضع الخطط والبرامج وأسس المدارس وعلّم وكوّن ودرّس من أجل بناء جيل ناطق بالعربية، ووقف موقفا صلبا من أعداء اللغة العربية في الجزائر، وجاء رده صريحا وقويا ضد قانون الثامن من مارس المشؤوم الذي أهان العربي في عقر دارها، وعدّها لغة غريبة بين أهلها ودارها.

ث.قيم المجتمع: كان ابن باديس يرى أن قيم الأمة الثقافية والدينية والاجتماعية تشكل ركنا مهما من أركان الهوية الوطنية، ولا يمكن أن تفعل فعلها في الأمة إلاّ إذا صلح العلم والتعليم والمعلم، ولذا فقد كتب سلسلة من المقالات في مجلة الشهاب تحت عنوان "صلاح

التعليم أساس الإصلاح" يبين فيها خطة إحياء معالم الهوية الاجتماعية الدينية والثقافية والسياسية للأمة الجزائرية.

يقول بن باديس بخصوص الوحدة الوطنية: "إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء، أمه الجزائر، وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس التدريس لخدمة العلم فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم لولا الظنون الكواذب، والأماني الخوادع يا عجبا، لم يفترقوا وهم الأقوياء فكيف يفترقون وغيرهم القوي، كلا والله، بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم (ذمتي بما أقول وأنا به زعيم) والإسلام له حارس والله عليه وكيل"[7].

2. دور ابن باديس في هدم الخطاب الكولونيالي:

1.2/ حركة الإمام ابن باديس الجهادية، ومبدأ الاستقلال:

كان ابن باديس ينظر للواقع الجزائري نظرة تحصر وألم، بسبب السياسة الاستعمارية ولكنه لم يبق مكتوف الأيدي بل قام بدراسة منهجية تحليلية، ورؤيا واقعية محلية، وخطة مدروسة، ابتعد بها عن الارتجال والعفوية والاندفاعية وهذا ما نجده في نظرته وموقفه، من مبدأ العمل من أجل أن يسترجع الشعب الجزائري سيادته الوطنية الكاملة، المتمثلة في مظهرها الجلي، التحرر من ربقة الاستعمار بكل تفاصيله، ونيل الاستقلال كاملا غير منقوص. "ففي المؤتمر الإسلامي، وعندما وقف بعض الأمة رافضة لمشروع فيوليت، مطالبة بالحصول الفوري على الاستقلال. بين لهم الإمام أن هذا المطلب لا يخصهم هم وحدهم فحسب، حتى ينفردوا به، وبالمطالبة بتحقيقه، ويغاروا عليه"[8] قائلا لهم: "ونحن نحترم رأي هذه الأقلية، وتؤمل بقاءها على رأيها، وهي تطالب بالاستقلال. وأي إنسان يا سادة لا يحب الاستقلال؟ إن البهيمة تحن إلى الاستقلال، الذي هو أمر طبيعي في وضعية الأمم"[9].

هذا هو تصور الإمام ابن باديس لمبدأ الاستقلال، الذي يفصل الحديث عنه فيقول: «إنّ الاستقلال حق طبيعي لكلّ أمة من أمم الدنيا، وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله، ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد». ويعلل ذلك من خلال نظره الفاحص المعتبر في تاريخ الجزائر، فيقول: «فكلما تقلبت الجزائر مع التاريخ، فمن الممكن أن يأتي يوم، تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي، وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة، والفرنسية خاصة» فتمنح الجزائر استقلالها، وتسلك فرنسا معها «مسلك انكلترا مع أستراليا وكندا واتحاد جنوب افريقيا. وتصبح بلاد الجزائر مستقلة استقلالا واسعا، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر»[10].. هذا هو النوع من الاستقلال الأولي الجزئي، الذي كان يريده ابن باديس في منتصف الثلاثينات، ومع الوقت، يتطور نحو الاستقلال التام والنهائي .

2.2/ وسائل ابن باديس في جهاده ضد الاستعمار الفرنسي تتمثل في[11]:

أ.الدروس المسجدية.

ب.تعليم الناشئة و تربية الأجيال.

ت.إرسال الطلبة المتفوقين للدراسة بالزيتونة.

ث.إصدار الصحف والمجلات.

ج.استغلال النوادي وفتحها.

ح.حضور التجمعات والمؤتمرات العامة، والدعوة غليها.

خ.الدعوة الشعبية والاتصال بالجماهير.

3.2/ تجليات المشروع الإصلاحي عند ابن باديس:

لقد كان لجمعية العلماء المسلمين بقيادة عبد الحميد بن باديس دورا كبيرا في توعية الشعب الجزائري ومحاربة الاستعمار الفرنسي حيث: "حاربت الجمعية العنصرية التي كان يغذيها الاستعمار وجعلها من أفتك أسلحته لقطع أوصال الأمة وأثبتت للجزائر نسبها العربي كما: "حاربت سياسة الإدماج في جميع مظاهرها، وقاومت التجنيس ونازلت أنصاره حتى قهرهم وأخرستهم وقطعت الحبل في أيديهم ثم أفتت فتواها الجريئة فيه يوم كانت

الفتوى في مثل هذه المسائل بابا من العذاب، فكان ذلك منها تحديا للاستعمار وإبطال لكيده وتعطيلا لسحره وأثبتت بتلك المواقف للجزائر إسلاميتها"[12] هذا ما كان من جمعية العلماء المسلمين من جهود في دحض المستدمر الفرنسي حيث جاءت: "جمعية العلماء على عبوس من الدهر ... فنفخت من روح العروبة في تلك الأنساب فإذا هي صريحة وسكبت من سر البيان العربي في تلك الألسنة فإذا هي فصيحة وأجالت الأقلام في كشف تلك الكنوز فإذا هي ناصعة بيضاء لم يزدها تقادم الزمن إلا جدة"[13].

إن الشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال نشاطه في جمعية العلماء المسلمين أثبت للاستعمار أن الجزائريين وحدهم الإسلام فوضعت بذلك سدا منيعا أمام محاولات فرنسا في التفرقة بين العرب والأمازيغ، كما عمل الإسلام بإصلاح عقائده وتفهم حقائقه وإحياء آدابه وتاريخه ... وعمل على إحياء اللغة العربية وآدابها وتاريخها في موطن عربي وبين قوم من العرب، فالشيخ عبد الحميد بن باديس من خلال الجمعية لم يتوان في الدفاع عن أي حق من حقوق الإسلام حيث وقف في وجه المبشرين بالمسيحية وعمل على توعية الشعب ودعوته لطلب العلم على أسسه السليمة وحرص على غرس فكرة العروبة وحب الوطن في عقول ونفوس الجزائريين.

يقول مالك بن نبي أن: "معجزة الحياة في الجزائر قد بدأت بصوت ابن باديس وندائه الذي أيقظ المعنى الجماعي وحول مناجاة الفرد إلى حديث الشعب"[14] إن المشروع الذي تبناه الشيخ عبد الحميد بن باديس سعى للتغيير لا للإصلاح فقط فهو أول الرجال الذين تنبهوا لضرورة التغيير، تغيير أوضاع الشعب الجزائري وتحريره من الذل والتبعية.

تفطن ابن باديس أن نور العلم هو الطريق الوحيد للقضاء على سياسة التجهيل التي انتهجتها فرنسا منذ أن وطأت أقدامها أرض الجزائر، كما أنه الملاذ الآمن الذي يساعد على إصلاح عقيدة الجزائريين، وإصلاح عقولهم ونفوسهم التي أضعفها الاستعمار، ومن ثمة إصلاح المجتمع بأكمله لذلك انشغل بالإصلاح الديني، والإصلاح الأخلاقي، والإصلاح الاجتماعي.

لم يكن ابن باديس يعرف الراحة في ممارسة العمل الإصلاحي قصد تغيير وإعادة بناء الإنسان الجزائري عامة والناشئة خاصة فكان يعلم الطلاب مختلف الدروس ويفسر القرآن للمواطنين بالليل واستمر يتابع دروسه دون ملل لا يعرف الراحة وينتقل عبر الوطن ويلقي دروس الوعظ والإرشاد في المساجد والمحاضرات في النوادي ويجمع حوله الرجال الذين يتوسم فيهم القدرة على المشاركة معه في النهضة حتى أنه كان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس أو أكثر وكانت الدروس تلقى ابتداء من الفجر حتى الساعة العاشرة ثم الظهر حتى العصر وواصل عمله على هذه الوتيرة دون انقطاع[15] وقد كان تأثيرها كبير وفعال وازداد عدد الطالبة الذين قصدوه من كل ربوع القطر الجزائري[16]، واستمر في ذلك إلى أن تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في أيار 1931[17].

دعا ابن باديس عام 1926 إلى توحيد جهود العلماء المقاومة الفساد الذي يعم البلاد ومواجهة الحركات الهدامة التي ترمي إلى طمس تاريخنا ووطنيتنا وقوميتنا الإسلامية العربية ووجدت هذه الدعوة استجابة كبيرة نتج عنها تأسيس هيئة نادي الترقي التي أخذت تنشر أفكارها العربية الإسلامية وتقاوم الإدماج والتجنيس ودعاتهما، ويبدو أن ابن باديس كان في هذه المرحلة يركز على النواحي الدينية والثقافية ويريد إخفاء أهدافه السياسية لتحرير الجزائر تحت ستار الحركة الدينية حتى يتهرب من غدر الاحتلال الفرنسي الغاشم وبطشه الشديد، بذلك نراه في ظل هذا المناخ المضطرب يشجع لقاءات المثقفين في نادي الترقي الذي كان بمثابة واحد من أهم مشاعل النور الذي أضاء الطريق أمام شعب الجزائر العربي لتحرر من نير الاحتلال الفرنسي واسترداد عروبة الجزائر وإسلامها[18].

بدأ ابن باديس بكشف خطط الاستعمار وتأييد الرأي العام الجزائري ضده ولكن بطرق سلمية علانية وكانت دروسه تحمل إشارات واضحة ودلالات مقصودة للوعي السياسي والانتماء الحضاري، ولقد كان ابن باديس حريصا على استمرارية العمل الإصلاحي تحاشيا الاصطدام قدر الإمكان وكان في سبيل ذلك يتعمد بإرسال حركات تحذيرية للإدارة الفرنسية لإيهامها بعدم تعارض عمله الإصلاحي مع الأهداف الكبرى للإدارة الاستعمارية.

كما أدرك ابن باديس أن الشعب الجزائري ينقصه كثير من الوعي الوطني وعدم استعداده للمواجهة المسلحة، وأدرك أن الاستعمار متحكم في الرقاب، ومن الحكمة إتباع أسلوب الملاينة حتى يؤمن شره ولا يجهض شعبه للإصلاح ، فمسلك ابن باديس هذا يكشف خطط الاستعمار ويؤيد الرأي العام الجزائري ضده ولكن بطرق سلمية علانية[19].

سعى ابن باديس إلى توحيد الشعب كله على أساس رابطة الدين والعروبة كما سعى إلى ترسيخ الوحدة الوطنية والقومية ورأى أنه هو السبيل الوحيد لتحرير الجزائر من الاستعمار.

من خلال رحلته العلمية ولقائه بكبار العلماء وطموحاته لنيل الحرية عمل ابن باديس بداية بتغيير أوضاع المجتمع الجزائري وركز على العمل الإصلاحي لإنقاذ الأمة من مكائد الاستعمار الذي نشر الفقر والبؤس والجهل والمهانة والاستعباد وطمس الهوية وانتماء الجزائريين ولم يكتف بهذا بل نشر الفساد الخلقي بين أفراد المجتمع فقد عمدت فرنسا منذ احتلالها أرض الوطن إلى تدمير وحدة المجتمع. من هنا حاول ابن باديس إحياء التعاليم الإسلامية وإرجاع مكانة اللغة العربية ونشرها في كل الفئات وتعزيز الوطنية في النفوس كما حاول نشر أفكاره، عبر الصحافة التي استعملها ضد الاستعمار التي سرعان ما تم توقيفها نظرا لنبرتها القاسية ضد المحتل،كما أن نظرة ابن باديس من جانب آخر لفرنسا كانت إيجابية فقد عبر في المنتقد عن إنجازات فرنسا ودورها في بناء الجزائر دون النظر إلى الهيمنة وأيضا عبر عن ضعف الدولة الجزائرية واستحالة بناء نفسها دون عمود متين أي دولة قوية، وتعتبر هذه المرحلة البداية لرحلة ابن باديس مع الاستعمار الفرنسي.

أكد ابن باديس على أن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا ولم يكن من الذين يدعون علم الغيب مع الله تعالى ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أن تزداد تقلبا وتصبح الأمة الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا تعتمد عليه فرنسا اعتماد الحر على الحر، كما كان مؤمنا بالحرية واعتبرها حقا شرعيا للإنسان وبدونها تنعدم إنسانيته فحق كل إنسان في الحرية كحقه في الحياة.

4.2/ ابن باديس المجاهد السياسي:

أدرك ابن باديس أن الجزائريين يواجهون قوة كبيرة لا يستطيعون صدها بالسلاح بل يجب أن تتهيأ الأمة من جديد عبر إعادة تكوينها الثقافي والسياسي والتربوي والنهوض بها

نهضة تعالج أمراض وعلل المجتمع، ونتيجة لكل هذا تكونت شخصية ابن باديس وتنامت أفكاره ليبدأ رحلته السياسية بأفكاره ومبادئه الخاصة: "فقد كان ابن باديس يهتم بالمشاكل السياسية ويتناقش فيها، ويتحدث إلى الجماهير عنها، لكنه لم يكن يقتصر في تناولها على الجانب الآني الذي يشترك في تصويره كل المثقفين، بل كان يتجاوز ذلك إلى تحليل كل الأبعاد العميقة التي لاتظهر للعيان في الحال لأنها ماتزال مختفية في أطواء المستقبل"[20] وكان وهو يتعرض لقضية قائمة لايفوته أن يستخلص المبادئ العامة التي تقوم عليها، ويصوغها صياغة تصلح معها لأن تكون منهاجا كاملا، وليس مجرد مقال عابر أو خطبة سياسية.

ومن أبرز مميزاته في هذا المجال أنه كان يهتدي لأحسن الشعارات تعبيرا عن طبيعة المرحلة، فقد كان الشعار الذي يضعه على غلاف «الشهاب» في الثلاثينيات هو «الحق – العدل – المؤاخاة في إعطاء الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات»، وكان هذا الشعار في أعوام 1929، 1930، 1931 يعبر عن اهتمامات مرحلة معينة من مراحل الكفاح السياسي. كان اهتمام، السياسيين فيها منصرفا إلى الحصول على جميع الحقوق المدنية والسياسية وإلغاء الفروق التي كانت تجعل من الجزائري مواطنا من الدرجة الثانية[21].

3. طرق احتجاج ابن باديس على الحكومة الفرنسية:

يرى الدكتور محمد بهي الدين سالم في كتابه ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير أن لعبد الحميد في الاحتجاج على سياسة الاستعمار طريقتان :

أ. الطريقة الرسمية بصفته رئيسا لجمعية العلماء المسلمين لا تتعدى حدود القانون حتى يضمن المحافظة على الجمعية.

ب. الطريقة الشخصية بصفته عبد الحميد بن باديس، وهي الاحتجاجات اللاذعة التي ينعت فيها الاستعمار بكل النعوت.

وطريقة عبد الحميد في التعامل مع الاستعمار يجمع بين الدعوة للوحدة بين صفوف الأمة الجزائرية التي فرقتها السياسة والمحافظة على كرامتها، وتكرار المناداة بالمساواة في المجالس النيابية رغم قرن السياسة الفرنسية هذا الشرط بالتخلي عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامي. ورغم رفض العلماء التنازل عن أحوالهم الشخصية فإنهم طالبوا بالمساواة، وعبد

الحميد في الطريقة الشخصية لا يهمه المحافظة على شخصية الذي نذره لخدمة قضية بلاده، أما بصفته رئيسا لجمعية العلماء فإن احتجاجاته لا تخرج عن الطور الرسمي محافظة منه على الجمعية كرمز لفكرة العروبة والإسلام[22].

خاتمة:

نستخلص مما سبق أن عبد الحميد بن باديس كان إصلاحيا ركز على التعليم، وتلقين الأجيال اللغة العربية وتحفيظهم القرآن الكريم كما أن مشروع ابن باديس الإصلاحي جاء شاملا لكل ما من شأنه هدم الخطاب الكولونيالي وتحرير الجزائر، وقد ركز على المقومات الثلاثة: "الدين الإسلامي اللغة العربية، الوطن الجزائري". كما أن منهج ابن باديس صالحا للتربية والإصلاح الاجتماعي على مر العصور، وقد استطاع هذا المنهج أن يدحض الاستعمار بكافة أشكاله وأخرجه من هذا الوطن،كما استطاع أن يكون رجالا أبطالا صنعوا التاريخ، كما لا ننس أن ابن باديس عمل بكل قواه على التأكيد على الشخصية الوطنية الجزائرية، وكذلك تأكيده على إحياء اللغة العربية التي سعت فرنسا إلى طمسها وبالرغم من التضيقات والخناق الذي ضربه الاستعمار إلا أن حركة ابن باديس قد أثمرت حركة فكرية سياسية ثورية تحررية كان لها الفضل في وقت لاحق في استقلال الجزائر وتخلصها من قيود الاستعمار.

الهوامش والإحالات

[1]- تركي رابح، الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، الجزائر، ط3، 1981، ص184.

[2]- عبد الحميد بن باديس، مجلة الشهاب،ج 7، ع 13، 1937م، ص304.

[3]- تركى رابح، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع. الجزائر 1975، د ط ص338.

[4]- سلوادي حسن عبد الرحمان، عبد الحميد بن باديس مفسرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 4 ص211.

[5]- البصائر، ع 171، 22 جوان 1939، ص،5،6.

(6)- أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ج 3، ط1 1992، ص111.

(7)- صالح بوعزة، بعد الهوية والمواطنة في المقاربة التربوية الباديسية مجلة تنمية الموارد البشرية – العدد الحادي عشر – ديسمبر 2015، ص529/528

(8)- عبد الرشيد زروقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، دار الشهاب، ط1 1999، ص157.

(9)-.البصائر، ع71، 936م. ص4،5.

(10)- عمار الطالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج3، ص320-321.

(11)- ينظر عبد الرشيد زروقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، ص158.

(12)- الشيخ البشير الإبراهيمي 1964 .مجلة مجمع اللغة العربية العدد 2، ص69

(13)- الشيخ البشير الإبراهيمي،1969، مجلة مجمع اللغة العربية، ص257.

(14)- مالك بن نبي شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور وشاهين مسقاوي، دار الفكر، د ط، 1969 بيروت، ص23.

(15)- عبد الرشيد زروقة، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، 1913، دار الشهاب – 1940 بيروت ط01، 1999، ص111.

(16)- مازن صالح مطبقاني، جمعية العلماء المسلمين الجزائرين ودورها في الحركة الوطنية، دار القلم دمشق، د س، ص231.

(17)- عبد الرشيد زروقة، مرجع سابق، ص111.

(18)- فهمي توفيق محمد مقبل، عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح والنهضة في تاريخ الجزائر الحديث 1889-1940. العدد 20 مارس2003، ص239.

(19)- رابح تركي عمامرة، عبد الحميد بن باديس رائد الاصلاح والتربية في الجزائر، الشركة الوطنية للنشر التوزيع، الجزائر، ط3 ،1981، ص70.

(20)- محمد بهي الدين سالم، ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، دار الشروق، ط1، القاهرة، 1999 ص57.

(21)- المرجع نفسه الصفحة نفسها.

(22)- المرجع السابق ص57.